Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (4), Issue (2) : 28 Feb 2020
P: 86 - 96

ISSN: 2522- 3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (4)، العدد (2) : 28 فبراير 2020 م
ص: 86 - 96

Interdisciplinarity between the normative and the a esthetic in the rhetorical Lesson Towards a textual linguistic approach

Hammani Hassane

Polydisciplinary Faculty || Errachidia || Morocco

Abstract: It is noteworthy that the grammatical text lesson is a complex process because it requires from researchers the use of mechanisms that are difficult to verify in reality. This is due to the fact that its source is still in the mothers of books while others are written in foreign languages which need to be translated. Therefore, the provision of the linguistic, the grammatical and the rhetorical for this lesson necessitates referring to the Arab heritage, through the books of the miracles of the Koran, and books of interpretation and rhetoric's because they constitute the secret of the semantic, grammatical and rhetorical industry, on the basis that these levels are inseparable in the textual analysis. We came to the following conclusions:

- Emphasis on the relationship between the science of meanings and the science of grammar since researchers cannot separate them.
- There are some Arab scientists who are aware of the relationship between language, grammar and meaning which has been included in their scientific writings.
- The rhetorical and the linguistic texts differ in a quality given the type of impact they have on the recipient.
- Both are based on the study of the logical mental relationship between the sentences of the text.
- The grammar of the text and rhetoric's strive towards finding justifications from within the text.

Keywords: the grammar lesson, the text, the grammar of text, text analysis, rhetoric's, the normative, the a esthetic.

التكامل المعرفي بين المعياري والجمالي في الدرس البلاغي نحو مقاربة لسانية نصية

حماني حسن

الكلية المتعددة التخصصات || الراشيدية || المغرب

الملخص: يُلاحظ أن الدرس النحوي النصي عملية معقدة؛ لأنها تتطلب من الدارسين آليات عسيرة التحقق في الواقع وذلك راجع إلى أن مصدرها لا زال في أمهات الكتب، وبعضها الآخر مكتوب بلغة أجنبية يحتاج إلى الترجمة لذلك فإن توفير العدة اللغوية والنحوية والبلاغية لهذا الدرس، يقتضي منا الرجوع إلى التراث العربي، من خلال كتب إعجاز القرآن، وكتب التفسير والبلاغة؛ لأنها تشكل سر الصناعة النحوية الدلالية البلاغية، على أساس أن هذه المستويات لا يمكن الفصل بينها في التحليل النصي؛ وقد خلصنا بخصوص هذا الأمر إلى العديد من الخلاصات منها ما يلي:

- التأكيد على أواصر القرابة بين علم المعاني وعلم النحو؛ حيث لا يمكن للدارسين الفصل بينهما.
- هناك من علماء العرب من تفطن لتلك العلاقة الرابطة بين اللغة والنحو والمعنى؛ تم إيرادها في مؤلفاتهم العلمية.
- إن النصوص البلاغية واللسانية النصية تختلف جودتها بمدى درجة تأثيرها في المتلقي.
- إن كلهما (النص البلاغي واللساني) يرتكزان على دراسة العلاقة المنطقية العقلية بين جمل النص.
- إن نحو النص والبلاغة يسعى إلى توفير قرائن داخل النص.

الكلمات المفتاحية: الدرس النحوي، النص، نحو النص، التحليل النصي، البلاغة، المعياري، الجمالي.

مقدمة

يعد نحو النص علما تقعيديّا جماليا بامتياز يكشف عن حدود عبقرية النحاة الإبداعية، واتساع الشعراء في صوغ عالمهم الشعري؛ وهو سر من أسرار العربية، قادر على إقامة الروابط المنطقية بين كلماتها، وجملها، ونصوصها؛ وهو عملية معقدة؛ لأنه بحاجة إلى آليات متباينة ومتشعبة ودقيقة. ورغم ما بذله الباحثون والدارسون من جهد وعناية فائقة في مجال الدراسات اللغوية النصية، إلا أنه مازال بحاجة ماسة إلى العديد من القراءات الممنهجة التي تمكننا من التعمق فيه، ومناقشة قضاياه الداخلية. والملاحظ أن معظم القراءات الواردة في هذا الحقل العلمي تتسم بالملاءمة بين التصورات الأصيلة والتصورات التي تشكلت لديهم أثناء القراءة والتنقيب عن المادة العلمية الخام. وأن ما وجدناه في هذه الدراسات يعد (في نظرنا) موفقا إلى حد بعيد، كدراسة محمد خطابي في كتابه لسانية النص، وتلك التي قدمها سعد مصلوح في مقاله "نحو أجرومية للنص الشعري"، ودراسة أشرف عبد البديع عبد الكريم في كتابه "الدرس النحوي في كتب "إعجاز القرآن"، وغيرها قليل.

إن المنهج المقترح لتتبع خطوات هذا العمل هو منهج لساني نصي، يقوم على الربط بين قضايا الموضوع وآلياته، وطرق نقل مقتضياته، وذلك من خلال الوقوف على العلاقة الواردة بين القرائن النحوية والبلاغية، ودورها في ترابط النصوص وانسجامها قصد تبليغ قضاياها العلمية للمتلقين. ومن الآليات اللسانية النحوية المعتمدة في هذا السياق آليات التقعيد والاتساع والاختزال، ومنها: آليات الحذف والتقديم والتأخير، والحركات الإعرابية. وتتجلى أهمية هذا العمل في كون الربط بين النحو والنص مسألة وسعت دائرة الدرس النحوي، لذلك كان الهدف من البحث في التكامل المعرفي بين المعياري والجمالي في الدرس البلاغي هو محاولة الكشف عن وجه الإعجاز البياني. فعلى الرغم من اختلاف التدوينات في هذا المجال، إلا أنه مازال بحاجة إلى قراءة واعية ونبيهة لربط السابق باللاحق. حيث لجأت إلى ربط التصورات البلاغية الإعجازية البيانية بنحو النص غير أن الإشكال المطروح هو:

ما صلة نحو النص بالبلاغة؟ وكيف استطاع (نحو النص) تفسير قضايا الإعجاز البلاغي الذي تناولته كتب النحاة والبلاغيين القدماء؟

المحور الأول: الأثر المعياري في التركيب العربي: اللغة بين السعة والتغليب

تعد اللغة العربية أرقى وسيلة لتحقيق التواصل والتفاهم بين أفرادها، وهي لغة العدول والاختزال والاختصار والاتساع بامتياز، ولم تكن لتحقق تلك الأهداف السامية "لولا قوانينها الضابطة التي دأب علماؤها على الكشف عنها، وعن أسرارها قصد التأصيل، ووضع الأنظمة المحافظة عليها من أي دخيل قد يشين إليها" (همامي، 2014: 13)؛ إذ "لاشك أن المكونات الأساس للمنظومة الصوتية في اللغة العربية في جملتها، واقعة على مستوى متقدم من التميز النغمي وتقبل سائر إمكاناته، وأن طبيعتها تحوز حزما من الاستعدادات الهائلة التي تحث الاستجابة السهلة لمختلف التكيفات الإيقاعية وذاك على الراجح وفق ما يقود إليه ذوق المتلقي وعقيدته الدينية، ومنعطفات خصوصياته العرقية بين الأجيال" (حسن حماني، 2017: 7).

ان لغة القرآن لغة علمية معجزة بامتياز، ولم ترق لغات العالم الأخرى إلى أن تضاهي نسقها وتنسيقها وجمالها، ونظمها واتساع معانيها، وألفاظها وصيغها وجمال نصوصها، وهو ما يجعل الأدباء وأهل اللغة يحكمون عليها حكما جماليا متميزا. وينعتونها بأحسن الصفات، ويعبرون عنها بأرقى العبارات يقول عبد النبي همامي: "القارئ المتميز ذو الارتباط المتواصل بالأساليب العربية الفصيحة يدرك إدراكا عميقا تميز اللغة العربية بخصائص ظاهرة، لا تمتلكها

غيرها من اللغات، فهي لغة الأعاجيب لوضعها المحكم، وتنسيقها الدقيق، تبين عن غوامضها بدقة، وعن أسبابها بمنطق، وعقل راجح، وتنم بعمق عن الأفكار، والفلسفات، وهي التي وضعت برعاية ربانية، ومن مبدع جلت عظمته" (هماني، 2014: 13). يقول عطية نايف الغول: "ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ/1087م) في دلائل الإعجاز من تفسير العلاقات السياقية، بأنه من أذكى المحاولات في تاريخ التراث العربي، والتي أوردها تحت عنوان النظم، وفسر جوانبها بأربعة مصطلحات: النظم، والبناء والترتيب، والتعليق. وهذه المصطلحات تتكامل في إلقاء الضوء على العلاقات السياقية. وعد الدكتور تمام حسان "التعليق" بأنه أخطر ما تكلم فيه عبد القاهر، لأنه يعني إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة القرائن اللفظية والمعنوية والحالية" (نايف الغول، 2008: 103).

ومادامت العربية لغة ربانية فإنها لغة غير عادية، يتوهم اللغوي خصوصياتها ويتدبر آليات اتساعها، والموسومة باختلافها وتنوعها وغناها، وهي سر جمالها وإعجازها؛ يقول تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء، الآية: 88). وجاء في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (يوسف، الآية: 82). و﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (البقرة، الآية: 93). ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ (الرعد، الآية: 31).

يقول ابن السراج: "اعلم: أن الاتساع ضرب من الحذف إلا أن الفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله، أن هذا تقيمه مقام المحذوف وتعربه بإعرابه وذلك الباب تحذف العامل فيه وتدع ما عمل فيه على حاله في الإعراب، وهذا الباب العامل فيه بحاله وإنما تقيم فيه المضاف إليه مقام المضاف، أو تجعل الظرف يقوم مقام الاسم. فأما الاتساع في إقامة المضاف إليه مقام المضاف فنحو قوله تعالى: ﴿اسأل القرية﴾ تريد أهل القرية، وقول العرب: بنو فلان يطؤهم الطريق: يريدون: أهل الطريق وقوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ إنما هو بر من آمن بالله. وأما اتساعهم في الظروف فنحو قولهم: "صيد عليه يومان" وإنما المعنى: صيد عليه الوحش في يومين" (بن السراج (ت316)، 255/2).

مما يبين أن الأمثلة على سعة اللغة العربية تتعدد وتختلف، حيث "يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ورود كلمة (صحراوات) كجمع لكلمة (صحراء)، بالواو عوضا عن الهمزة تجنبا للجمع بين الهمزة والتاء، كعلامتين للتأنيث، فألحق البعض على سبيل السعة كلمات مثل: علباوان وحمراوان، وكساوان، وبعلباوان، وقراوان، بـ (صحراوات)، رغم أنها على صيغة المثنى، والأخرى على صيغة الجمع والمسوغ لذلك في نظرهم، هو ورود الجمع على طريقة التثنية" (هماني، 2014: 14). يقول عبد النبي هماني: "قد يحدث الاتساع على مستوى اللفظة الواحدة، كأن يتم تذكير المؤنث ومخاطبته خطاب المذكر، وقد يخاطب في العربية المؤنث خطاب المذكر على سبيل التغليب والسعة كمخاطبة الشمس بالقمر، والمرأة بالإنسان، كما أنه قد يؤنث المذكر وهو نادر، كتأنيث الكتاب باعتباره صحيفة (المرجع السابق: 16).

يقول ابن فارس: "فإن قال قائل: فقد يقع البيان بغير اللسان العربي، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين. قيل له: إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ثم لا يسمى متكلما، فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا. وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط، لأنا لو احتجنا [إلى] أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة، فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ هذا ما لا خفاء به على ذي نُهية" (بن فارس (395 هـ): 17.16).

نلحظ من خلال ما سبق؛ أن اللغة العربية غنية بمقوماتها وآلياتها وتنوعها وجمالها؛ لأنها لغة التنزيل الرباني الذي سيرت به الجبال؛ وهي لغة الاختزال والاتساع في الآن نفسه، حيث يتمثل الاختزال في التعبير عن العديد

من القضايا بأقل عدد ممكن من القواعد والآليات والمفاهيم، ويتمثل الاتساع في كون اللغة من أرقى لغة العالم وأغناها مفهوما ومصطلحا؛ حيث أُعطي للشيء الواحد أزيد من تسعين اسما؛ وكما يتجلى في وضع صيغة لسانية مكان صيغة أخرى، كما تم توضيحه في المثال السابق.

المحور الثاني: الأثر المعياري في التركيب العربي: المعيار واللسان العربي

يعد النحو آلية من آليات اللغة، وعلما من علومها، والتي لا غنى للدارس المتخصص عنها وخاصية من خاصياتها، وهو القانون المنظم لأفكارها وقضاياها، ولمفرداتها وجملها ونصوصها، ولباقي خصائصها ومقوماتها الجمالية، وكيان أسمى لنسيجها الداخلي والخارجي؛ ذلك أن "عودة الفكر اللغوي الحديث لأصول النحو العربي، ونظرياته العلمية لدليل على نضج هذا العلم العربي، وبقائه يقظا، ومنبعا حارا، ومعينا ناضب الفكر، يثير فضول اللغويين المحدثين، ويغريهم بالكشف، وإعادة النظر" (همامي، 2014: 20). من ثم؛ فالباحث في مناهج اللغة وأدواتها ومعاييرها يكون مضطرا لهذا العلم في جميع المجالات؛ و"يبقى النحو سرا من أسرار العربية، قادرا على إقامة الروابط المنطقية بين كلماتها، وصيغها الذهنية، ومساعدتها على تجاوز كل العراقيل التي تمنع اللغة من استغلال طاقاتها، وإبداعها في إطار القانون المنظم.

لا يجد العلماء علما من العلوم الإسلامية إلا وافتقر إلى اللسان العربي، "ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء، وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين، والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم، والتشبث بأهدابه فَسرِهم وتأويلِهم" (الزمخشري (ت 538ه)، 2004: 30)؛ ذلك أن "العلاقة بين النحو واللغة علاقة فاعلة من حيث إن المعاني النحوية تقوم على اختلافات عديدة وحمولات دلالية دقيقة، كلها من إبداع مستخدم اللغة الذي يقصدها عند إرادة القول" (همامي، 2014: 18). يقول السكاكي مبرزا خصوصيات نحو النص من خلال حديثه عن علم النحو العربي: "اعلم أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها" (السكاكي (ت 626 ه)، 1983: 75). وهو ما عبر عنه شكري محمد عياد من خلال رؤيته العميقة، التي تنص على أن النحويين قد "بنوا بعللهم أو أصولهم عالما شعريا عجيبا، يكاد يكون حيا... وقد نسأل: هل أجدى عملهم هذا على النحو واللغة، ولكنها أولا وأخيرا فكر فلسفي، وعمل فني في الوقت ذاته. سواء من نظرنا إليها من جانب الفلسفة أم من جانب الفن، فليست لها أية فائدة علمية، ولكن لها تأثيرا عظيما في تشكيل حساسية من يتعاطونها" (شكري، 1988: 121). من ثم؛ "يغدو النحو فاعلا فيما هو إبداعي، وعنصرا جماليا يكشف عن حدود عبقرية النحاة الإبداعية، واتساع الشعراء في صوغ عالمهم الشعري باهتمام بالغ بمختلف علوم الأدب الأخرى من لغة وصرف وعروض، وقافية وخبر وأنساب وغير ذلك" (المرجع السابق: 20).

وبجانب هذا التأثير العام للفلسفة النحوية، باعتبارها جزءا من التدريب الذهني الذي كان يتلقاه كل متعلم، هناك تأثير مباشر من جهة البلاغة، التي قلنا من قبل، إنها كانت فرعا، بل الفرع الأكبر والأهم من دوحة النحو. فكما رأينا سيبويه يعنى بالمجاز والحذف والقلب تحت اسم ((الاتساع في الكلام))، نجد ابن جني يعقد بابا طويلا يسميه ((شجاعة اللغة))، "يتناول فيه هذه الموضوعات وغيرها ولا سيما التقديم والتأخير، الذي أشار إليه سيبويه إشارات سريعة مبينا أن التقديم يفيد الاهتمام بالمقدم. هذه الموضوعات أصبحت أركانا في دراسة البلاغة" (شكري، 1988: 122)؛ ذلك أن النحو يكسب "اللغة مرونة تجعلها قادرة على إحداث التواصل المنشود، والإبانة

بتراكيبها عن الأغراض، والكشف عما تضمره النفوس؛ وإطلاق اللسان العربي في كل العصور صحيحا فصيحا في حدود القواعد المضبوطة والسليمة، مكن من ارتياد عوالم الشعراء والكتاب، وما دفعه لذلك هو طبعه الأصيل، وخياله المبدع وإحساسه الرقيق، وعشقه للكلمات الهامسة" (همامي، 2014: 17)، التي تشكل موضوعات بلاغية جمالية.

لكن البلاغة لم تنظر إليها من زاوية ((الشجاعة)) أو ((الاتساع))؛ أي المرونة اللغوية التي تسمح بترك الأقيسة النحوية كلها. وهي أقيسة عقلية . "والإقدام على ما فيه مخالفة صريحة للعلاقات الذهنية الصرفة؛ بل من زاوية ((التحسين)) واختيار العبارة الأقوى تأثيرا؛ ولم تعد تبحث عن ((العلل)) في عالم متخيل من العلاقات شبه الإنسانية بين الفصائل اللغوية؛ بل راحت تبحث عن عملية في حالة المتكلم أو المخاطب أو سياق الكلام، وهي العوامل الثلاثة التي جمعت تحت اسم ((مقتضى الحال))" (شكري، 1988: 122).

من هنا يمكن القول إن النحو يرتكز على كيفية التركيب لتأدية أصل المعاني وجوهرها؛ وفي هذا الأمر مزية كبرى تتمثل في توظيف الكلم داخل الفضاء النصي مع احترام تام لمواقعه النحوية؛ وهذا سر جمال اللغة العربية؛ ذلك أنها تجمع بين التقعيد والاتساع والصياغة الجمالية للكشف عن حدود عبقرية النحاة الإبداعية، وعبقرية الفنانين المبدعين؛ مما يبين أن هناك صلة قوية بين النحويين والبلاغيين والمبدعين في إبراز جمالية الأعمال الإبداعية، ودراستها دراسة دقيقة.

المحور الثالث: تفاعل المعياري والدلالي

يجدر بالذكر أن دراسة النصوص بمختلف أجناسها وتجلياتها، تقتضي من الدارسين بذل الجهد للجمع بين مستويات متباينة متكاملة، قصد الوقوف على أسرارها وآلياتها وقضاياها، ومعاييرها؛ لأن توصيف هذه المعطيات يكون له وقع نحوي جمالي داخل النصوص. وقد عُدّ فصل النحو عن علم المعاني ابتعادا عن جهود بعض النحاة الذين حاولوا الإبداع في إطار الدرس النحوي، في علاقته باللغة والدلالة وغيرهما، كما عد إزهاقا لروح هذا الدرس، وذهابا بنوره، وبترا مضللا لعلم كان سيسمى معاني النحو، والذي أصبح يطلق عليه حديثا نحو النص (همامي، 2014: 26).

إن الغاية التي يسعى إليها الناظر في النص هي فهم النص وأن وسيلته إلى ذلك، هي النظر في العلامات المنطوقة أو المكتوبة في النص ليصل بواسطتها إلى تحديد المبنى، وأن الوصول إلى المبنى بواسطة العلامة ليس من العمليات العقلية الكبرى في التحليل؛ لأنها مسألة تعرّف يعتمد على الإدراك الحسي بواسطة السمع أو البصر (تمام حسان، 1994: 191). "وليس صحيحا القول بعزل الصنعة النحوية عن المعنى؛ والذين يتهمون النحو باللفظية غافلون عن قيمة النحو في أداء المعاني، وقدرته الإبداعية على مساعدة الكلمات في الإفصاح عن دلالتها بشكل دقيق ومنظم؛ ولهذا حرص النحاة على تمام المطابقة بين تقديراتهم الإعرابية وتفسيراتهم المعنوية، وكانوا يتحفظون من ذلك" (همامي، 2014: 23). ودليلنا في ذلك الحركات الإعرابية التي أصبحت تقوم بوظائف معنوية سامية داخل النصوص؛ إذ لم تعد فارغة من المحتوى، وبدون دلالة تذكر؛ في حين أصبحت آليات نحوية مركزية، وغدا دورها أساسا مزدوجا: معنويا وجماليا؛ وهذا ما يبرز بوضوح الطابع الإبداعي للنحو يقول ابن الفخار: "قد رأينا في العربية أن الإيمان والكفر كائن بين حركتين" (الغرناطي (ت896هـ)، 1999، ج1: 330).

من ثم؛ يتضح أن حركات الرفع، والنصب، والخفض لم ترد عبثا في أواخر الكلمات؛ بل تشكل آليات لتوضيح المعاني واتساعها، والكشف عن الفروق الدلالية الدقيقة؛ حتى تأخذ الكلمات دورها في تبيان وظائفها النحوية، والمشاركة في إبراز العلاقات المعنوية والدلالية داخل الجملة؛ لأن النحو نظام من المعاني والعلاقات التي

تكشف عنها صلة الكلمات، ووظائفها النحوية (همامي، 2014: 24)؛ ذلك أن تحلية المفردات بما تستحقه من حركات الإعراب ليس زيادة صوتية عبثية بل هي ترجمة لمعانيها الكامنة في نفس المتكلم؛ لذا فالسؤال عن إعراب الكلمة، إنما هو سؤال عن مبلغ فهم النص (الشجيري، ع31، 2018: 316). يقول أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي مبينا أهمية الإعراب في فهم المعنى: "إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، فتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتصحُّ معرفة حقيقة المراد (القيسي (437)، 1424هـ، ج1: 101).

ويرى عبد النبي همامي أن تسمية النحو بعلم الإعراب راجعة "لوظيفة النحو في تعيين صلة الكلمات داخل الجملة الواحدة، ودور الحركات الإعرابية في الإحالة على الأبواب النحوية، كل ذلك يتم طبعا بحسب المعاني، وهذه التسمية ليست صحيحة؛ لأن النحو أرحب صدرا، وأوسع من الإعراب" (همامي، 2014: 22). وما يتسم به المعنى الوظيفي للمبنى الواحد من التعدد والاحتمال يجعل الناظر في النص يسعى دائما وراء القرائن اللفظية، والمعنوية، والحالية ليرى أي المعاني المتعددة لهذا المبنى هو المقصود؛ ومن هنا نرى التفاضل بين المعربين للجملة الواحدة (تمام حسان: 181). يقول الإمام: الشاطبي "إن العرب تتسع في كلامها اتساعا لا يفهمه إلا من علم النحو وتوابعه" (الغرناطي، ج1: 243).

يؤكد اعتناء النحو بالمعنى فكرة أساسا تعتبر علم المعاني كقسم من أقسام البلاغة قمة الدراسة النحوية، وفلسفتها، وترى ضرورة إلحاق هذا القسم بحضيرة الدرس النحوي (همامي، 2014: 26). وينبني النظام النحوي للغة العربية الفصحى على مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها؛ وذاك كعلاقة الإسناد والتخصيص (وتحتها فروع)، والنسبة (وتحتها فروع)، والتبعية (وتحتها فروع أيضا) وهذه العلاقات في الحقيقة قرائن معنوية على معاني الأبواب الخاصة كالفاعلية والمفعولية (تمام حسان، 1994: 178).

وقد انطلقت صناعة الإعراب من المعنى لتكون نظرية نحوية دقيقة بنيت قواعدها على المأثور الفصيح من كلام العرب؛ فكل ركن من أركان هذه الصناعة أساسه المعنى، فكل حركة وسكنة وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وحذف وتقدير في نظم الكلام قائم على ما يقتضيه المعنى (الشجيري، 2018: 316)؛ ذلك أن الصناعة النحوية ترتبط بالمعاني ارتباطا جوهريا وعميقا، وملزمة بالخضوع لها.

يشير هذا الكلام إلى العلاقة الوطيدة الرابطة بين الصناعة النحوية وعلم المعاني؛ حيث لم تعد تلك النظرة الكلاسيكية الدنيئة للنحو، والتي تجعله حبيس الألفاظ والحركات الإعرابية والصيغ النحوية التي لا تقوم بدور، ولا تؤدي وظيفة؛ لكنه أصبح مرتبطا بالمعاني، معبرا عنها محققا ترابطها، وقائما بوظائف تداولية، وبأدوار كلامية بين الطرفين؛ وهو ما وضحه قول عبد النبي همامي: "إن الزخم الهائل من القضايا النحوية الواردة في مؤلف الفراء لدليل ساطع على فاعلية النحو عنده في الكشف عن المعنى، الشيء الذي أبعد مؤلفه (معاني القرآن) من دائرة الكتب النحوية المعيارية، فهو كتاب فريد يقوم على الجمع بين النحو واللغة والمعنى" (همامي، 2014: 25).

إن الدرس النحوي الحديث عملية بسيطة، وقيمتها المعرفية عميقة؛ لأنها تتطلب من الدارسين آليات يسيرة التحقق وصعبة الصياغة؛ وذلك راجع إلى أن مصدرها لا زال في أمهات الكتب، وبعضها مكتوب بلغة أجنبية نصل إليه من خلال الترجمة؛ لذلك فإن توفير العدة المنهجية لهذا الدرس يقتضي منا الرجوع إلى التراث العربي، من خلال كتب إعجاز القرآن، والنحو وكتب التفسير والبلاغة؛ لأنها تشكل سر الصناعة النحوية الدلالية البلاغية، على أساس أن هذه المستويات لا يمكن الفصل بينها في التحليل النصي. من ثم؛ فإن الفصل بين النحو وعلم المعاني هو:

- ابتعاد عن الطابع الحداثي للنحو، وإزهاق لروح هذا الدرس، وبتر لعلم جديد يدعى نحو النص.
- إغفال كثير من الباحثين للقدرة الإبداعية للنحو، واعتباره نحوا جامدا بدون جدوى.

- التأكيد على أواصر القرابة بين علم المعاني وعلم النحو؛ حيث لا يمكن للدراسين الفصل بينهما.
- من علماء العرب من تفطن لتلك العلاقة الرابطة بين اللغة والنحو والمعنى؛ تم إيرادها في مؤلفاتهم العلمية.

المحور الرابع: المعيارية والبناء النصي

يعد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 ه) من النحاة القدامى الذين تناولوا النحو بمستوييه: التقعيدي والجمالي، وآمنوا بمكانته السامية في العملية الإبداعية، وأدركوا دوره الأساس في بناء الجمل وتحليلها وتنبأوا بتلك العلاقات النحوية الرابطة بين مكونات النصوص وجملها، والذي فطن إلى إبراز مواطن الجمال في الصياغة الأدبية، أو الإخبارية من خلال مكوناتها النحوية، الشيء الذي يؤكد أن مرجع القيم الدلالية والفنية في النصوص الإبداعية هو الإمكانات النحوية (المرجع السابق: 88)؛ ومع أهمية العلاقات التركيبية؛ فإنها لا تمثل سوى مستوى من مستويات البحث الذي أجراه عبد القاهر في (الدلائل والأسرار) ذلك أننا نجد مستويات أخرى ترتبط فيها الصياغة بالسياق أحيانا، وترتبط فيها بالدلالة الوضعية وانتهاكها أحيانا أخرى، بحيث تصبح وحدات الدلالة المفردة نظاما متسقا في تركيب الجمل على مستوياتها المختلفة (عبد المطلب، 1984: 34)؛ حيث تأتي المزية من انعكاس هذا المستوى النحوي على العلاقات التي تنشأ بين المفردات في تكوين الجملة النحوية؛ فالمزية لا يمكن أن تكون في الكلام من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها؛ لأن ذلك معناه ألا تجب المزية بالفصل وترك العطف، إلى آخر ما هو هيئات يحدثها التأليف، ويقتضيها الغرض المقصود (المرجع السابق: 28).

من ثم؛ يعد عبد القاهر الجرجاني في نظرنا رائدا من رواد النص؛ وذلك من خلال استنباطه لنظريته المهمة، والمكتملة في فهم النص الأدبي، والتي جمعت بين النظام الفكري والمنطقي للنحو؛ أي بين الصياغة التركيبية والتأويل النحوي العميق؛ إذ لا يمكن إدراك هذان المستويان دون إدراك واستيعاب القرآن الكريم دلاليا وجماليا.

يقول سعد مصلوح: "ولدت أجرومية النص من رحم البنيوية الوصفية القائمة على أجرومية الجملة في أمريكا، وكان مقال زيليج هاريس Zellig Harris تلميذ بلومفيلد وأستاذ تشومسكي ثم مريده فيما بعد عن ((تحليل الخطاب)) Discourse Analysis، من معالم الطريق في هذا الاتجاه" (مصلوح، 1991: 153)؛ وأضاف قائلا: "شهدت اللسانيات منذ منتصف الستينيات في أوربا ومناطق أخرى من العالم توجها قويا نحو الاعتراف بأجرومية النص بديلا موثوقا به لأجرومية الجملة، وفتحت للدرس اللساني منافذ كان لها أبعد الأثر في دراسة اللغة ووظائفها النفسانية والاجتماعية والفنية والإعلامية" (المرجع السابق: 153). وما دامت قواعد العربية هي نفسها قواعد النص القرآني؛ فإن وظيفتها لا تنحصر في الفهم والتفسير؛ "وإنما تتجاوز ذلك إلى الحفاظ على الروابط العقلية والأدبية بين الأجيال على اختلاف ثقافتهم، وإلى تمكين السليقة من التعبير السليم شعرا كان أو نثرا، ومن لا يعرف فضل قواعد العربية لا يعرف فضل النص القرآني" (المرجع السابق: 86).

أظن أن قواعد اللغة مرآة النحو التي تعكس معاييره وآلياته، ومحركه الذي يتحرك به، وهي الآليات اللسانية النصية التي تجعل النصوص مترابطة؛ ترابطا تاما: داخليا وخارجيا؛ حيث لا نحلل نصا من النصوص دون توظيفها. وهي التي أضفت طابع التميز على الخطاب الرباني، وجعلته خطابا ربانيا معجزا وثقيلا، مختلفا عن غيره.

يرى أشرف عبد البديع؛ أنه على الرغم من أن البنية الدلالية تعتمد على البنية النحوية، فإن هذه الأخيرة ليست تفسيرا مباشرا لها، وعلى مستوى "معنى المعنى" يصبح البناء النحوي، وإن كان بناء صحيحا، عاجزا عن أن يقدم معيارا سليما للتفسير (عبد الكريم، 2003: 73. 74). من ثم؛ فالبنية النحوية لم تكن تهدف إلى تفسير القضايا والبنيات الأخرى؛ وإنما لها دور أساس يتمثل في توزيع القرائن النحوية على النص، مع حفظ مواقعها؛ مما يساعد على تحقيق المعنى ومعنى المعنى داخل النصوص. وللإشارة فالعلل التعليمية عند الزجاجي قرائن نحوية لتفسير

الظواهر اللغوية وهي أقرب ما تكون إلى وصف الظواهر اللغوية والقواعد النحوية؛ إذ يتم فيها تحديد الوظائف النحوية؛ أي بيان العلاقات التركيبية بين الصيّغ والمفردات، حين يتمّ تركيبها في جُمل وأساليب، دون محاولة لفرض ما يخالف الواقع اللغوي" (أبو المكارم، 1973: 189).

إن ربط النحو بالنص مسألة أساس وسعت دائرة الدرس النحوي النصي، وجعلت الأصول النحوية النصية معبرا إلى الوقوف على أسرار التراكيب، وتبيان النكت البلاغية، والفوائد البديعية؛ "ومن فوائد هذا الارتباط، التمكن من معرفة العلاقات النحوية في الاستخدامات اللغوية الصحيحة، والصياغة الفنية، والوقوف على أسرار جمال النص؛ بحيث تصبح هذه العلاقات سببا من أسباب هذه الأسرار" (همامي، 2014: 88.9- 93.2). يقول محمد عبد المطلب: "لقد أدرك النحاة أن صناعة البحث عن المعنى ومفردات اللغة أمران متلازمان، كما أدركوا أهمية التمييز بين الأغراض التي تعيش في داخل النظام اللغوي" (عبد المطلب، 1984: 41).

وبناء على ما سبق؛ اتجه عبد القاهر الجرجاني نحو دراسة العلاقة الرابطة بين المفردات اللغوية والخيط الناظم بينها؛ لأنها تشكل أساس المنهج العقلي وكل ما يرتبط به من الخصوصيات التي تولدها الإمكانات النحوية النصية؛ قصد الوصول إلى المعنى ومعنى المعنى.

وأظن . حسب ما ذهب إليه محمد عبد المطلب . أن آليات نحو النص سبب في العلاقات القائمة بين الكلمات وبين التراكيب؛ والانشغال بها في فن من فنون العربية يكسبها جمالية ملحوظة، كما يكسب هذا الفن التعبيري دلالات متنوعة ومتباين بتباين الأغراض والقضايا؛ ذلك أن بعض النحاة النصيين قاموا بدور هامٍّ في إبراز إعجاز القرآن من خلال توجيه الدرس النحوي إلى مباحث جمالية تركيبية لا عهد للنحو المعياري بها (همامي، 2014: 87)؛ وهذا الأمر يمثل جوهرا من الجواهر النفيسة التي أتى بها النحاة في مؤلفاتهم، ولم يتم التعمق فيها إلا في الزمن الراهن؛ يقول محمد عبد المطلب "أصبح النحو سر صناعة العربية، فهو رابط الصيّغ الذهنية، ويساعد اللغة على تخطي كل الصعاب وصولا إلى عملية الإبداع، وظل في كثير من مباحثه يستهدف تحليل علاقة الألفاظ المستقلة بالمعاني، ثم يستهدف تبعا لذلك طبيعة الوحدات الكلية وعلاقاتها التجاورية التي يبدعها النحو" (عبد المطلب، 1984: 42).

وقد حقق ارتباطه بالنص القرآني في مدرسة التفسير الإسلامية، فوائد عديدة منها معايشة القرآن كبناء فني متكامل أغنى العربية وعلومها، كما أغنى الفكر والإبداع العربي، واستحدث طرق فنية لإقامة الروابط بين الكلمات وبين الجمل، وتنوع الدلالات بحسب الأغراض الشيء الذي يؤكد أن تركيب الصيغ وفق قواعد النحو شديد الارتباط بالإبداع (همامي، 2014: 87). ومن خلال دراستنا للمستوى النحوي وتتبعنا له، يتضح لنا أن النحاة القدماء ميزوا بين مستويين للدراسة النحوية من خلال كتبهم النفيسة وأفكارهم المصقولة؛ إذ يرتبط الأول برصد الصواب والخطأ في الأداء الجملي؛ في حين يتجاوز المستوى الثاني هذا المجال إلى مستوى نصي أرقى هو: الجمال والإبداع.

مما يبرز أن النحاة السابقين قد تناولوا في مؤلفاتهم الحديث عن المعيارية والبناء النصي، وهو ما يوحي للدارسين بأنهم السباقين لنحو النص على غيرهم لكن بدون قصد؛ لذا كان اهتمامهم أمرين: يتمثل الأول في استقراء كلام العرب وتحديد القضايا النحوية، ويتعلق الثاني بالعلاقات المتنوعة بين الكلمات والجمل؛ فتتسع الدائرة مع النحاة النصيين الذين أصبحوا يدرسون النصوص وما يرتبط بها من قضايا داخلية وخارجية، وهو ما عبر عنه النحاة بمفهوم النظم؛ ذلك أنه عند عبد القاهر الجرجاني: "يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها" (الجرجاني، 2004: 415).

يتضح؛ أن عبد القاهر الجرجاني قد أحسن قولا لما درس نظريته النظمية دراسة نحوية، وأن المزية العظمى فيها تتمثل في تلك الروابط المنطقية الرابطة بين المكونات النصية؛ إلا أنه لم يعر اهتماما كبيرا للخصوصيات

التركيبية المتعلقات بالألفاظ؛ ونحن نعلم بأن الترابطات النصية ترابطات تكاملية بين التركيب والمعنى؛ وهو ما جعلنا نتحدث عن الطابع العقلي في الدراسة الجرجانية.

نلحظ أن مفهوم النحو الجرجاني يأخذ شكلا عقليا . كما هو عند تشومسكي . وليس مجرد وسيلة اتصال تستعين بها اللغة في أداء وظيفتها الأساس؛ وهذا الشكل العقلي هو الذي أتاح إمكان رصد الطاقات النحوية الفعالة، عند الرجلين، وإن كان تشومسكي قد بدأ بالجملة، وصولا إلى المفرد، في حين بدأ عبد القاهر بالمفرد، وصولا إلى الجملة (عبد المطلب، 1984: 33). يقول أشرف عبد البديع عبد الكريم في هذا السياق: "النظم عند الخطابي لا يتجاوز حدود أسوار الجملة، في مقابل مفهوم "النظم" عند عبد القاهر الذي تجاوز به الجملة إلى العلاقات الداخلية بينها وعلاقات الجمل بعضها ببعض وعلاقة الفقرة، ثم علاقة النص أو ما في حكمه" (عبد الكريم، 2003: 82). وجاء في قول محمد عبد المطلب مفندا رأي عبد القاهر الجرجاني: "النظم في جوهره يتصل بالمعنى من حيث هو تصور للعلاقات النحوية، كتصور علاقة الإسناد بين المسند إليه والمسند، وتصور علاقة التعدية بين الفعل والمفعول لأجله، إلخ. ثم تأتي المزية من وراء ذلك بحسب موقع الكلمات بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض" (عبد المطلب، 1984: 28). مما جعلنا "ندرك أن المنهج العقلي هو الذي سيطر على فكر عبد القاهر ثم تشومسكي فقادهما إلى اعتماد النحو التقعيدي أساسا لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة، وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية" (المرجع السابق: 35).

يتبين للدارسين أن مفهوم النحو عند الخطابي هو قريب من منظور تشومسكي؛ لأن كليهما ينطلقان من الجملة بحيث لا يتجاوزان أسوارها؛ في حين نلاحظ أن عبد القاهر قد تعمق في هذا المفهوم وحاول تخطي حواجز الجملة التركيبية إلى العلاقات النحوية؛ باعتبارها أساس بناء النصوص؛ إلا أننا نفند ما ذهب إليه هذا الأخير؛ ذلك أن البنيات التركيبية غير كافية لبناء الجمل وتحليلها، ومادامت الجمل مكونا أساسا لبناء النصوص؛ وهي جزء لا يتجزأ منها؛ فإنه من المفروض علينا التركيز فيها على البنيات التركيبية والعلاقات النحوية؛ وتضام هذه العلاقات هو ما يؤدي إلى بناء النصوص وتحليلها؛ وما يجمع كل من عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي هو الرؤية العقلية.

إذ إن ربط الجرجاني النحو بالصياغة الفنية، والنظر إلى التأليفات اللفظية والمعنوية للنص الإبداعي من خلال الإمكانات النحوية، قد وجد صدى كبيرا لدى الدارسين المحدثين كالخطابي، وفان ديك VAN DIJK الذي اعتبر النحو التقليدي قاصرا عن تلبية حاجات الدراسة النصية، لاهتمامه فقط بدراسة الجملة، داعيا إلى الاعتناء بالبنيات الكبرى التي تؤلف النص (عبد النبي هماني، 2014: 90). يقول أشرف عبد البديع: "خاصيتي التلاؤم والربط عند الخطابي، هما الخاصيتان الأكثر بروزا في مذهبه النحوي في الكشف عن إعجاز القرآن؛ وذلك مرتبط بحقيقتين:

الأولى: هي خاصية النظم؛ ذلك أنهما يرتبطان ارتباطا وثيقا ومباشرا بالنص، وهما يقعان ضمن إطار مفهوم أكبر، يجمع بينهما عند الخطابي؛ أما الثانية: أن هاتين الخاصيتين لم يجعل لهما الخطابي مفهوما محددا. (عبد الكريم، 2003، 82- 83). لذلك نجد حديثه عن دور القرائن النحوية في الصياغة الفنية تبناه العديد من اللغويين والأسلوبيين المعاصرين، الذين أشاروا إلى أهمية هذه القرائن في تعميق الدلالة إلى جانب المعنى واللفظ، كما أن حديثه عن أثر التغيير في التركيب النحوي على الدلالة، لا يختلف عما ذكره "كلوردج" عن لغة الشعر وتشومسكي عن البنية العميقة في الجملة (هماني، 2014: 80- 90).

من ثم؛ أدرك عبد القاهر الجرجاني الفرق بين النص الإبداعي بما يحتوي عليه من قرائن نحوية بلاغية جمالية، تجعله ضمن قائمة الأعمال الكبرى الرصينة، والنص العادي، وهو النص ذو اللغة المباشرة؛ انطلاقا من تفكيك النص إلى أجزائه، وربط دلالته بالسياقات الخارجية، ولا غرابة في ذلك ما دامت مجهوداته مبنية على

المستوى النظمي، وفاعلية النحو فيه؛ قصد الوصول إلى الإعجاز العلمي والبياني للقرآن الكريم، وللأعمال الكبرى كالنصوص الشعرية القديمة.

خاتمة

نستنتج أن هناك علاقة بين القرائن النحوية النصية وبين الآليات البلاغية؛ مما يبرز أن نحو النص، ما هو إلا استمرار للعديد من القضايا البلاغية؛ الشيء الذي يبرز اختلاف العلوم المرتبطة بالنص وتنوعها، ومدى التكامل المعرفي بينها، وكيفية مساهمتها في تحليل النص؛ إذ يمكن أن نذكر العديد من أوجه التلاقي بينهما؛ والمتمثلة في ما يلي:

- التأكيد على أواصر القرابة بين علم المعاني وعلم النحو؛ حيث لا يمكن للدراسين الفصل بينهما.
- من علماء العرب من تفطن لتلك العلاقة الرابطة بين اللغة والنحو والمعنى؛ إذ تم إيرادها في مؤلفاتهم العلمية.
- إذا كان نحو النص يهدف إلى تفسير القضايا والبنيات الأخرى؛ فإن له دورا آخر يتمثل في توزيع القرائن النحوية على النص، مع حفظ مواقعها؛ مما يساعد على تحقيق المعنى ومعنى المعنى داخل النصوص؛ كما نجد البلاغة تقوم بالدور نفسه، وتهدف إلى الهدف نفسه.
- إن ربط النحو بالنص مسألة وسعت دائرة الدرس النحوي والبلاغي.
- إن النصوص البلاغية واللسانية النصية تختلف جودتها بمدى تأثيرها في المتلقي.
- إن كليهما يرتكزان على دراسة العلاقة المنطقية العقلية بين جمل النص.
- يسعى نحو النص والبلاغة إلى توفير قرائن داخل النص.
- إن الرؤية المثالية للنحو والبلاغة تتمثل في كونهما يحاولان تقديم تفسير دلالي للنص اعتمادا على سياق مقامي.
- كلاهما يهدفان إلى تحقيق الإقناع والاقتناع من خلال النص.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أبو الحسن أحمد بن فارس (395 ه)، الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه القاهرة . مصر.
- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت 538ه)، 2004، المفصل في علم العربية، دراسة وتحقيق الدكتور فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، ط1.
- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، 2004، دلائل الإعجاز، الناشر مكتبة الخانجي، ط5، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر.
- أبو بكر محمد بن السراج (ت316) الأصول في النحو، مؤسسة الرسالة، تحقيق عبد الحسين الفتلي. ج2.
- أبو بكر محمد بن علي السكاكي (ت 626 ه)، 1983، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، ط1.
- أبو محمد مكي بن طالب القيسي (437)، 1424ه، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، بيروت: دار البشائر، ط: 1، ج1.
- علي أبو المكارم، 1973، أصول التفكير النحوي، ط1، بيروت، مطابع دار القلم.

- محمد بن علي بن الأزرق الحميري الغرناطي (ت896هـ)، 1999، روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام: تحقيق: سعيدة العلمي، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط: 1، ج: 1.
- أشرف عبد البديع عبد الكريم، 2003، الدرس النحوي في كتب إعجاز القرآن، دار فرحة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- تمام حسان، 1994، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة.
- حسن حماني، 2017، اللغة العربية من جمال العبارة إلى بلاغة الإشارة، مؤسسة الراوي للتجارة والخدمات . الرشيدية، ط1.
- عبد النبي هماني، 2014، جمالية تحليل الخطاب دراسة لغوية وظيفية لبدائع الفوائد لابن القيم الجوزية (ت751هـ)، أفريقيا الشرق، ط1.
- عطية نايف الغول، 2008، الاتساع اللغوي بين القديم والحديث، دار البروني للنشر والتوزيع . عمان.
- محمد عياد شكري، 1988، اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، أنترناشيونال بريس، ط1.

المجلات:

- سعد مصلوح، 1991، نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول مج10، ع2، 1.
- محمد عبد المطلب، 1984، فصول، مج5، ع1.
- هادي أحمد فرحان الشجيري، 2018، الإعراب وأثره في توسيع المعنى دراسة تطبيقية على آيات من القرآن الكريم السياقية، مجلة العوم الإنسانية، ع: 31.